

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) ﴾

شرح الكلمات:

{ نادى ربه } أي زكريا عليه السلام دعا ربه

{ نداءً خفياً } أي سر بعداً عن الرياء ان يرزقه الله ولد. ليكون أكمل وأتم إخلاصاً لله، وأرجى للإجابة.

المعنى الإجمالي :

قوله تعالى: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) أي دعاه دعاء الصارع الخاضع المتوكل، الذي لا يرجو إلا ربه، وعبر بالنداء لأنه طلب منه، التجأ فيه إليه، وهو طلب لشخصه ولأسرته، وقد كان هذا الطلب في ذاته دعاء وعبادة، كما قال تعالى: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...)، ودعاه في خفاء، ولذا قال سبحانه: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)، و (خَفِيًّا) صفة مبالغة من خفي، أي أنه بالغ في إخفاء دعائه فلا يعلمه قومه، ولأنه مناجاة لله وضراعة إليه وهو لا يلتجئ إلا إليه وحده: (وَأَدْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ...) . وقال تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55)).

وفي هذا إشارة إلى أن الدعاء تضرع وفي الجهر به اعتداء؛ لأنه يكون فيه دعوة لغير الله وشكوى للناس من ربه. وموضوع النداء، بينه بقوله تعالى عنه.

فكيف تنادى ربك تبارك وتعالى وهو أقرب إليك من حبل الوريد؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أن تتكلم؟ فإذا كان

إقباله عليك موجوداً في كل وقت، فما الغرض من النداء هنا؟
نقول: الغرض من النداء: الدعاء.

ووصف النداء هنا بأنه: {نِدَاءٌ خَفِيًّا} [مريم: 3] لأنه ليس كنداء الخلق للخلق، يحتاج إلى رفع الصوت حتى يسمع، إنه نداء لله تبارك وتعالى الذي يستوي عنده السر والجهر، وهو القائل: {وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الملك: 13].
لذلك، جعل الحق سبحانه أحسن الدعاء الدعاء الخفي؛ لأن الإنسان قد يدعو ربه بشيء، إن سمعه غيره ربما استقصه، فجعل الدعاء خفياً بين العبد وربّه حتى لا يفتضح أمره عند الناس.
أما الحق سبحانه فهو ستار يحب الستر حتى على العاصين، وكذلك ليدعو العبد ربّه بما يستحي أن يذكره أمام الناس، وليكون طليقاً في الدعاء فيدعو ربه بما يشاء؛ لأنه ربّه ووليه الذي يفرع إليه. وإن كان الناس سيحزنون ويتضرعون إن سألتهم أدنى شيء، فإن الله تعالى يفرح بك أن سألته.

فوائد إخفاء الدعاء:

- 1- أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي
- 2- أنه أعظم في الأدب والتعظيم لأن الملوك لا ترفع الأصوات عندهم ومن رفع صوته لديهم مقتوه والله المثل الأعلى فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.
- 3- أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولله ومقصوده فإن الخاشع الدليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته؛ حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضارعه إلى أن ينكسر لسأله فلا يطاوعه بالنطق وقلبه يسأل طالباً مبتهاً. ولسانه لشدة ذلته ساكتاً وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.
- 4- أنه أبلغ في الإخلاص.
- 5- أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء.

6- أن الدعاء هو ذكرٌ للمدعو سبحانه وتعالى متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه فهو ذكرٌ.

7- أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحدٌ فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره.

من آدابه أيضاً: عدم الجهر بالصوت؛ فزكريا نادى ربّه نداءً خفياً، ويدل هذا الأمر أيضاً على:

- 1 - حُسن التأدب مع الله تعالى.
- 2 - مناجاته ربّه ليلاً.
- 3 - عدم إزعاجه لمن هم في البيت؛ فقد يكونون نائمين.
- 4 - صدق دعائه وإلحاحه عليه؛ إذ لو كان غير صادق أو غير ملّحاح لما ازور عن النوم، وقام يدعو ليلاً.
- 5 - إخلاصه في الدعاء؛ لئلا يمازجه رياء.
- 7 - صدق توكله عليه وشدة ثقته به.

استجاب الله تعالى دعاء زكريا وفق ما يتمناه، وقد بشره

ببشارات كثيرة:

- 1 - سُنَّجِبَ امرأته.
- 2 - تنجب غلاماً، والغلام هو الشاب الطائر الشارب، أو الكهل، فهذا يعني أنه سيعيش إنساناً طبيعياً دون أن يكون للسنّ الكبيرة والشيخوخة أي أثر سلبي في ذلك؛ فبشارته بغلام من باب اعتبار ما سيكون؛ تيمناً بسلامته، ويدل على ذلك اسمه "يحيى" الذي لم يكن أحدٌ ليتسمّى به قبله.
- 3 - سيكون الغلام واثقاً من نفسه، مُحاطاً برعاية الله تعالى له، داخلاً تحت كنفه ورعايته.
- 4 - سيكون حكيماً وهو صبيّ.
- 5 - سيكون رحمة للناس، عطوفاً عليهم.
- 6 - سيكون تقياً مطيعاً، مُزَوَّراً عن الذنوب والمعاصي والآثام، مطهراً منها.

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا

سلسلة تفسير القرآن العظيم الإصدار رقم (238)



فوائدها من تفسير السورة من أبيه 3

تهدى ولا تباع

ولا تسوننا من صالح دعائكم

أعدها (عزمي إبراهيم عزيز)

8- أن يُحَسِّنَ العبد ظَنَّهُ بالله حتى في أصعب المواقف، فزكريا حالته - كما يقولون - مستعصية أو مستحيلة! ولكن الله تعالى من بيده مفاتيح كل شيء إذا أراد شيئاً حدث لتوّه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: 82]

9- أن تُلَجَّ في الدُّعاء، وتكثر منه، ويكون ديدنك ودأبك، وقد نادى الملائكة سيّدنا زكريا - عليه السّلام - حتى تبشّره بقبول الله تعالى دعاءه - وهو قائم يدعو ربّه في المسجد.

10- نحن إن أحسنّا الدُّعاء، فإن الله سيستجيب دعوتنا وفق ما يُرضينا، وهذا الأمر حدث مع سيّدنا زكريا - عليه السّلام - فقد استجاب الله دعاءه، ولكنّه استغرب وذُهِش؛ إذ كيف يُمكن أن يكون شيخٌ كبيرٌ، وامرأة طاعنة في السنّ، وفوق ذلك عاقراً لا تنجب - كيف يمكن أن يحدث استجابة الدعاء؟! لقد عبّر عنه سيّدنا زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: 8]، ولكن الله تعالى يذكره بأنّ كلّ الأمور ممكنة؛ ما دام العبد متوكِّلاً على ربّه، مُحسناً ظنّه به، قال تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا ﴾ [مريم: 9].

11- من شروط استجابة الدعاء أيضاً: أن يكون المسلم متديلاً غير متكبرٍ، ولا مختالٍ، متواضعاً دوغماً عُجْبٍ، يُسرّع في عمل الخير، ويدعو ربّه في جميع الأوقات والأزمان؛ لينال شرف استجابة الله دعاءه

12- حضور القلب وانكساره وذُلّه أمام الله تعالى سببٌ في قبول الدُّعاء واستجابته، وكذلك الطهارة أدب من آدابه، والإلحاح فيه، وعدم اليأس أو القنوط المفضي إلى تركه.

والله اعلم وصلى الله على محمد وعلى اله وصحبه وسلم .

7 - سيكون باراً بوالديه، كثير الإحسان إليهما، غير عاصٍ ولا متجبرٍ عليهما، ولا مخالفٍ لأمر ربّه.
8 - سيكون زاهداً متعففاً لا يقرب النساء.
9 - سيكون نبياً صالحاً.

الفوائد :

- 1- الدُّعاء الحَقِّيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ لِذَلِكَ عَلَيْهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَالتَّبَعْدِ عَنِ الرِّيَاءِ.
- 2- من أدب الدعاء أَنْ ندعوه سبحانه كما أمرنا: { ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [الأعراف: 55] .
- 3- استحباب السرية في الدعاء لأنه أقرب إلى الاستجابة.
- 4- الدُّعاء ذلك الرّابط الوشيق بين العبد وربّه، به تتحقّق الأمنيات، وتتحسّن الأحوال، وتهلّ النفوس، ويحصل المقصود، ويُجاب السُّؤل، وترتاح السَّريرة، وتعرف فضل ربّها عليها.
- 5- كفّل الله تعالى لِمَنْ يَدعوه - بقلبٍ خاشع، وفؤادٍ حاضر، وحواسٍّ مُقبلةٍ عليه - أن يستجيب له، ويُعطيه ما يَصُبو إليه.
- 6- إِنَّ أَيْ شَخْصٍ غَيْرِ واثق بالله لو يعلم أن شيخاً كبيراً لا ينجب، وامرأته عاقراً، وقد علاه المشيب، يدعو الله الولد - سيقول إذ ذاك: لقد جنّ الشيخ وربّ الكعبة! ويحدث أن يستهزئ به، أو يسخر منه، ونسي المسكين أن الله لا يعجزه شيء.
- 7- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَطْلُبُ مِمَّا أَنْ نَقْدِمَ لأسباب دعائنا، وأن نَشْرَحَ أحوالنا وأمورنا؛ فهو يعلم السِّرَ وأخفى - لا يطلب ذلك إلّا لأجل أن يستحضر المحتاج حالة ضعفه، وأن يخشع قلبه، وتُخضع جوارحه، ويكون منكسراً صادقاً في دعائه، وقد كان زكرياً هكذا، فهذا أدبٌ من آداب الدعاء، ورسنٌ من أرسان قبوله.